قصة

قطراتٌ تنزّ بالملحِ

جمال بن عبد الله الحبان

الترقيم الدولي: ISBN

09_55676_34

تحقيق ومراجعة: الشرطيّ الخلّ والصديق.

هناك حين تبعثرت أعشاب الربيع البائدة على أركانه وفي زواياه، وهناك أيضا طير شؤم يهدأ زعقاته بمنقار لا يرى، ذاك الغراب الأسحم الذي يطير محلقا وظلّه الضئيل يجتاز الحقول المزروعة بالذرة والبرسيم، ففي الفضاء نبوءة مرة على ما يبدو، فهذا الركود الأزلي المطبوخ بحرارة الصيف ... هناك شيء من اللاجدوى.

بخار الملح الملبّد في الفضاء السامق، وتلك الشمس التي في طريقها للمغيب، تتفجّر على مجاري السواقي دونما رغبة، بعرش من هموم يومية، لأمجاد غابرة لمشيخة يتيمة مثل بيته وسط البيوت.

هديل الحمام الحزين، وصوت اليمام في النخيل، وروح تكأكأت عليها غيوم الوحدة من أحزان التوجسات عالية الرتب... فبين القرى الناعسة وسط البساتين، كشارعِ إسفلتي يبهرنا بسيلان سياراته غير المنقطع، والذي يحمل ذراع الوهم إلى الفضاء حيث يرتمي الصمت بأحضان الموجودات، يتهيّأ مسعود

لتبريد جلسة الليل فوق التّل الأخضر، فوق تراب ناعم به رائحة الملح والعفن، تربة عتيقة ترثي نفسها، والصيف كعادته يحيل مسعود لكيس قمح لاصقا بالأرض، وهو يتملى غبار الأقدام ويتشدق بأغلفة الحيطان الكلسية، بأنفه الضّخم المشعر، ووجهه الذي أفقدته السنون كثيرا من متانته، كما أصبح يمرق الحياة المحيطة به بشيء من الكفاية والعتاب في آن واحد. هي أمواج النّهر المستكين منذ آلاف السنين، كان يرمق مدى السدة وامتدادات الظل المتنامية آنا بعد آن، كما أطربت موسيقى زوال الشمس نحو أفق أخضر المكان، ولم يعد يستطيع تخمين ما يدور حوله، بعينين جامدتين مثل قير هيت، لا تنضحان بالحب ولا بالغضب، بين لياليه ونهاراته في قيظ هذا الزمان.

تنعكس أشعة الشمس على بياض منزله فترقّ وتفترق، هناك شجرتا توت نضرتان، تظللان تيلا متناثرا، يقود البصر إلى سدة ترابية، بها نخيل مائج بأعشاش الطيور، وظلّ يلطف القيظ وبجواره تبن متكلس، ولشجرة الصنوبر هناك فيء يختبئ فيه ثعلب مذعور، كما لضفتي الوادي برودة ناعمة، يتوارى فيها البزاق وتنق فيها الضفادع، وتسبح فيها أسماك البوري، عالم غامض من الخدر، هكذا كان دورق الأيام الخوالي، تمنى أن لايطاله الموت إلا بعد أن

يلاعب حفيده ويرتوي برحيق الحياة، كان مشعا بهجسات القلوب، كانت كلمته لا ترد وهاجسه يصيب مبتغاه، إلا أن الأقدار رمته رمية المصير، رمته بحجر لا يغش ولا يوارب، كانت نظرته إلى ضفاف السواقي وحواف الحقول في الليل وحكايات الجن خلف النخيل والصفصاف والأثل وراء النهر ... فتنة غاوية.

أشرعة خافقة بالأمنيات، صافية صفاء ضمير حيّ، من سواحل بحار مرقشة بالجزر والنبت العجيب ... لقد جفا العز ولا يلبث أن يباد، ليفجر معه رشاشا مدهونا يفجر الأحقاد.

كانت حافة الوهدة مظلة له، تحجب عنه شمسا صحراوية متهورة، ووسط ليل موحش خال من الحياة، لديه سلاح الليل المجرب ... نارٌ عظيمة ... كان دائما في يقظة لازبة ... يرحبُ دائما بحضور ذلك الحيوان الغريب الذي يجلس على النار المنطفئة في آخر كل ليل ... آمنا لا تهاجمه فيه الضواري المستكينة في الوادي الخفيض، كأن القرية تابوت عتيق دفنت فيه الحياة منذ آدم ... تذكر فرسه يقتحم أكمات مغطات بالرمث والعاقول مغيرة نحو الشمال.

دخن كعادته سجائر محشوة بمخدر الحشيش، ساقه ذهنه إلى الواجبات الدينية التي عليه أداءها، تسمّع لصوت النّهر ليسترجع شريط الأيام الخوالي وتفاصيل حياته، ظل يعصف ويعصف دون توقف، انسابت إلى أخاديد وجهه قطرات من العرق، قطرات تنزّ بالملح ...

لقد سعى دائما لمعرفة الكامن وراء خطوط الكف ودلالات الحصى، رعشة الخوف تسري في مسامات الجلد ومنعطفات الأعضاء وتنايا مفاصله، ورهبة الإطلاع على الأسرار، رهبة ثقيلة ينوء بها الكاهل، سيشرف على ماضيه وقريته وأهلها، يستشعر شوقا لفظ اشتباكات الزمان، يتفجر رغبة لولوج بحر السنين، وفضوله أشد ... أمكن من رعب الحقيقة ...

الكل هاجر ليترك بيته للغرباء من الجنّ والحيوان والطير، الكل سافر لحياة أفضل، ليبقى مسعود الوحيد الذي كانت حياته في القرية هي الأفضل...

لم يعد بخزّان العمر إلا رواسب تافهة لا يخشى عليها ... فلم التردد الآن!؟ هاجروا يصطادون فرصا للرّزق، ولو بأجسادهم النحيلة وظهورهم المنحنية، وعيونهم الغائرة والتي تحطمها خطوط وتجاعيد وذبذبات من القلق.

لم يعد يأكل مسعود إلا ما يحفظه من الموت ... والدخان فقط ...يتجه فورا إلى سجائره وحسراته، كما يسهر الليل منصتا إلى عواء الثعالب وهمسات الأرواح الغائبة والتي كانت إمّا ناصحة أو متوعدة، ذكريات لمّا تزل عالقة بذهنه مثل شهاب من نار، لتزيد من انسداد معدته، وضيق نفسه التي لا تطالبه إلا بالسجائر، بين عطفات الأبواب العريضة وعند زوايا الجدران المتآكلة.

وقبل أن يتيه وسط هذا كله، يجلس مثل صنم، وأمارات موت تلوح في لحيته وفي تجاعيد عينيه، فباقتضاب في البدء أو بتفصيل وإسهاب، تجلّت على محيّاه علائم التّبجيل، وهو مستريح على كرسيه المدثر بصوف خروف بيضاء، وظلال من الريبة تعتريه، لا يريد أن يؤخذ بغتة، وخاصة في هذا الجو الذي يحمل غبارية تلحس الورق، وبقرب ريش الدجاج وصراصير ميتة وأوراق طماطم جافة، تذكر زخم الوجوه المباغث، كان فكره شتاتا في واد آخر ينتمي إلى الماضي، وقوقأة الدجاج ملح على تلك الذكريات، أحس دائما بقوة تدير الأرض وتزرع النجوم... دائما يرى كيف كان لطول عمره نصيب من عذابه، كيف مات الأحفاد أمام عينيه، وكيف انقطع نسبه فجأة، كيف مات الجميع، كيف بقي وحيدا خلا من ذكريات قديمة جدا ...ليواصل حياته منتظرا الموت

لعل شمله يجتمع من جديد، لقد وصل للحظة لم تعد للحياة قيمة، ليترفّع صديقه الغراب بجناحين أسحمين كي يحلّق في الأعالي ... وليخرج الثعلب متحررا من صحبة الكهل، وليبحث الحيوان الغريب عن موقد آخر...بعد أن رأوا جميعا أن الوقت قد حان للرحيل، سكتت الضفادع لوهلة وعمّ القرية سكون رهيب، ليبقى صوت النّهر...لفّ على وجهه ملفعا أسود، تذكر فاطمته التي كانت تتهيّأ لجمع الحشيش قرب ضفة النهر بجوار زهور النرجس بمنجل حادّ واسع القوس، تذكر فاطمة ... فالفاطمات كثر، لقد خيمت على بيته مؤامرات ليلية في البساتين وعند النهر المستكين، إختلط كل شيء بكل شيء، والمرئيات اختلطت بالمسموعات، تتقدمه نظراته العجماء المصمتة على جنون، أحسّ أنه انبثق من لا مكان، والأصوات تهيم ضابحة لتطغى على ضجة مروره الميت، والتي ستقوده إلى النهاية المحتومة، وقد حان الوقت لمغادرة الحياة الفانية، حياة الوحدة القاتلة.

دندن بالأغنية التي كان يرددها فمه دوما، اقترب للنافدة التي يمكن للناظر منها رؤية البساتين متداخلة الأغصان، ومع أن هدوء الحياة لذيذ من حوله، استجمع شهواته المحرمة والذكريات والأحلام والأمنيات المترعة بطلعات

النساء، هيّأ نفسه للرحيل، ليكتفي من كل شيء ... غفا قليلا لينصرف تاركا معه آيات لم يفهمها بعد من الحياة.

فموتًا هنيئا لكلّ قلب صافٍ، لم يرد سوى صحبة تؤنسه لما تبقّى من أيامه التعيسة على هذه البسيطة ...

انتهى بفضل الله وكرمه.